الجزائريون المجندون في الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى(1914-1918): أضواء جديدة في كتابات الملازم الأول رابح بوكابوية

The Algerians enrolled in the French army during World War I (1914-1918) New highlights in the reports of First lieutenant Rabah BOUKABOUYA

أ د حنيفي هلايلي-جامعة سيدي بلعباس
عضو المجلس العلمي للمركز الوطني د ب-ت ع ج/ن ع1

الجزائريون المجندون في الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى (1914-1918): أضواء جديدة في كتابات الملازم الأول رابح بوكابوية

The Algerians enrolled in the French army during World War I (1914-1918) New highlights in the reports of First lieutenant Rabah BOUKABOUYA

أ د حنيفي هلايلي-جامعة سيدي بلعباس
عضو المجلس العلمي للمركز الوطني د ب-ت ع ج/ن ع1

ملخص:

هذه الدراسة هي مشروع لترجمة كراستين لبوكابوية، حول أوضاع المجندين المغاربة عامة والجزائريين خاصة، وفرارهم من صفوف الجيش الفرنسي على جبهات القتال الأوروبية خلال الحرب العالمية الأولى.

كما ترصد لنا الدراسة الكيفية التي فر بها الملازم الجزائري رابح بوكابوية في أفريل 1915 رفقة سبعين من رفقائه نحو المعسكر الألماني تعتبر هذه الكراريس الدعائية حملة شرسة ضد السياسة الفرنسية تجاه المجندين المغاربة في صفوف الجيش الاستعماري، الذي عاملهم بالتمييز العنصري، ولم يهتم بهم كمقاتلين في صفوفه النظامية.

الكلمات المفتاحية: الجزائريون، المجندون، الجيش الفرنسي، الدولة العثمانية، ألمانيا، الحرب العالمية الأولى، بوكابوية.

Abstract:

This survey is a project of the translation of Boukabouya's two notebooks, about the conditions of all Maghrebians conscripted, and the Algerians. in particular, who deserted the French armed forces in the European frontlines during W.W.I.

This research set apart the method that first lieutenant Rabah BOUKABOUYA along together with his seventy of his comrades, had applied in his desertion on April 1915, in order to join the German side. The notebooks were considered as an aggressive propaganda against the French policy regarding the Maghrebians conscripts in the Frensh colonial army, who treated them badly, and racially abused them, meaning the Frensh army

didnt consider them as regular soldiers. The army did not take care of them as soldiers in a regular army.

Keywords: Algerians, the conscripts, the French army, the Ottoman state, Germany, W.W.I, BOUKABOUYA.

مقدمة:

اهتمت ألمانيا بالعالم الإسلامي منذ وصول غليوم الثاني[2](Guillaume II) إلى عرش ألمانيا وطرحه شعار تأمين «مكان تحت الشمس لبلاده»، مع كل ما حمله هذا الشعار من زحف نحو الشرق. وتشير ظاهر الأمور بوضوح إلى اهتمام ألماني رسمي بالإسلام بمعية الدولة العثمانية التي تحمل صفة السلطان العثماني كخليفة للمسلمين[3] إن إعلان ألمانيا عن صداقتها للمسلمين والخلافة العثمانية ومنافسة الدول الإمبريالية، وخصوصاً فرنسا في ادعاءاتها حماية الكثلكة في الشرق، وبريطانيا في سياستها الإسلامية، قد بينت اختراق ألمانيا للدولة العثمانية اقتصاديا وعسكريا. لقد عرفت العديد من مناطق العالم- بالموازاة مع المعارك العسكرية الطاحنة- «معركة إعلامية» ودعائية لا تقل ضراوة عن الأولى، استعمل فيها الإسلام من قبل المتحاربين تأكيداً من كل منهما على احترامه له، وتمكين رعاياه من المسلمين من ممارسة شعائره بكل حرية. وضمن هذا الخندق أو ذاك برزت شخصيات جزائرية. ومن بين أولى الشخصيات الجزائرية التي كتب باللغة الفرنسية حول انطباعات المجندين بلاد المغاربة عامة والجزائريين خاصة في فيالق الجيش الفرنسي كتاب الملازم رابح بوكابوية الذي فر من الجيش الفرنسي رفقة مجموعة من المجندين في الفيلق المرابط على جبهات القتال بفرنسا في أبريل 1915

لقد تحول الإسلام منذ الثمانينيات من القرن التاسع عشر إلى ركن رئيسي في سياسة ألمانيا الخارجية وصراعاتها الدولية، لذلك سعت لاستخدام نفوذها لدى السلطان العثماني لضرب المصالح البريطانية في مصر والهند وأطراف الجزيرة العربية، وكذلك لمصالح فرنسا في شمال إفريقيا وبلاد الشام.

شكلت الحرب العالمية الأولى ذروة سياسة ألمانيا الإسلامية في المشرق والمغرب العربيين، ويعتبر المستشرق الألماني فون أوبنهايم[4](Max Von Oppenheim) أحد أهم الشخصيات الألمانية التي لفتت الانتباه قبل الحرب إلى أهمية استخدام الجامعة الإسلامية والجهاد ووصفها السلطان العثماني كخليفة للمسلمين من أجل استمالة الشعوب الإسلامية الخاضعة للسيطرة البريطانية والفرنسية. وكنتيجة حتمية للدعاية الألمانية، ساد شعور لدى المسلمين بأن ألمانيا هي الدولة الوحيدة حليفة الإسلام. وأضحى إمبراطور ألمانيا في نظر المسلمين هو (الحاج محمد غليوم).

الحرب العالمية الأولى وبداية الاعتراف بحرية الشعائر الدينية الإسلامية

أدى التنافس الألماني الفرنسي قبيل وغداة الحرب العالمية الأولى في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا إلى محاولة كل طرف استغلال العامل الديني للمنطقة ومحاولة استغلاله وتجييشه ضد الطرف الأخر، فعمدت فرنسا إلى استنفار الطرق الصوفية الموالية لها في المغرب العربي عامة والجزائر بشكل خاص وشيوخها لدعوة الجزائريين للوقوف معها في

الحرب ضد الألمان، أما ألمانيا فحاولت أن تستغل علاقاتها الجيدة وتحالفها مع الدولة العثمانية ووزنها الروحي كرمز للخلافة الإسلامية بالدعوة إلى فكرة «الجهاد» ضد الفرنسيين باعتبارهم غزاة محتلين حاربوا الدين الإسلامي، وضمن هذا الخندق أو ذاك برزت شخصيات جزائرية.

ومن بين أولى الشخصيات الجزائرية التي كتبت باللغة الفرنسية حول انطباعات المجندين الجزائريين في فيالق الجيش الفرنسي كتاب الملازم الأول رابح بوكابوية الذي نظم عملية فرار مجموعة من الجزائريين رفقة تونسيين ومغربيين من الجيش الفرنسي في أبريل1915.

ارتبطت مسألة الهوية بالتاريخ والذاكرة في المجال العربي منذ القرن التاسع عشر وذلك في مواجهة الحضور العثماني ومواجهة الاستعمار الأوروبي بأبعاده الثقافية والحضارية. يقودنا هذا إلى البحث في المضمون الوطني والبذور الأولى للفكرة المغاربية. من خلال مشاركة المغاربة في الحرب والتي أدت بالدول الأوروبية خاصة ألمانيا وفرنسا من الاعتراف بالشعائر الإسلامية وإقامة مساجد في عواصمها للعبادة. ويتجلى جديد هذه السياسة في تأسيس جامع باريس وتكاثف جهود النخب الدينية المغاربية (تونس، الجزائر، المغرب الأقصى) .

لماذا تم اختيار مذكرات بوكابوية في تأسيس لما يسمى بالذاكرة الجماعية للجزائريين خلال الحرب العالمية الأولى؟ لا شك أن المسارات التي رافقت انتشار هذا الكتاب في الدوائر الإعلامية والأدوار التي لعبتها كل من فرنسا وألمانيا للتأجيج وردود الأفعال، هي السبب في اختيارنا لمعالجة هذا الموضوع التاريخي. تجدر الإشارة هنا أن تثمين مذكرات بوكابوية كان وراء الشعارات التي حملتها تلك الكتابات حول الهوية المغاربية، والأساليب الدعائية حول أوضاع المجندين، وحرية تطبيق الشعائر الدينية، والعادات والتقاليد.

ساهم مجندو البلاد المغاربية مساهمة كبيرة وبعشرات الآلاف من خيرة الشباب في أطوار الحرب العالمية الأولى إلى جانب الجيوش الفرنسية، وهو الأمر الذي حمل فرنسا على الإسراع بالاهتمام بالإسلام وبشعائره لدى المجندين.تزامن وصول السلطان العثماني عبد الحميد الثاني(1842-1912) إلى السلطة سنة 1876، مع انحصار خطير في حدود دولته بعد فقدانها للعديد من أجزائها سواء في أوروبا، أو في العالم الإسلامي، جراء النزعة الانفصالية للشعوب والقوميات، وتكالب القوى الاستعمارية وتآمرها على تقطيع أوصال «الرجل المريض» . ومن جهة أخرى برزت ألمانيا كقوة ناشئة، أصبحت في حاجة ماسة إلى مجالات حيوية لإنعاش اقتصادها، الأمر الذي أغراها بمجال الدولة العثمانية، ليس فقط لموقعها الاستراتيجي فحسب، وإنما لاتساع أسواقها وتنوع شعوبها، فعملت على اكتساحها في إطار سياسة» سياسة الاندفاع نحو الشرق «التي اعتمدها الإمبراطور غليوم الثاني (و تأكيد لذلك التقارب العثماني- الألماني جاءت زيارة الإمبراطور الألماني إلى الأستانة في نوفمبر 1898، معلنة عن بداية تغلغل ألماني اقتصادي وعسكري وسياسي، شمل مختلف أرجاء الدولة العثمانية، استغلال منها لثقلها الروحي على المسلمين آنذاك. ولقد أكد غليوم الثاني- على هامش زيارته لعاصمة الخلافة العثمانية أنه: «صديق الثلاثمائة مليون مسلم المجلين للخليفة العثماني..»، وأنه مستعد لإنقاذهم من وطأة مضطهديهم، كما تلقب بلقب «الحاج غليوم»، وهو أمر انتشر بين المسلمين الذين ظن بعضهم أنه اعتنق فعلا الإسلام[5] وباندلاع الحرب العالمية الأولى، انساقت

الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا، واعتبرتها فرصة لتنوير مسلمي الدولة على القوى الاستعمارية الأوروبية، مستغلة نفوذها الروحي حيث لم يلبث السلطان العثماني أن وجه بيانا إلى مختلف جيوشه، كما أصدر شيخ الإسلام فتوى شرعية[6] أعلن بمقتضاها الجهاد المقدس ضد الحلفاء، وهكذا عرفت عديد المناطق في العالم بالموازاة مع المعارك العسكرية معركة إسلامية ودعائية، استعمل فيها الإسلام من قبل الطرفين المتحاربين تأكيدا من كل منهما على احترامه وتمكين رعاياه من المسلمين من ممارسة شعائره[7].

من الواضح أن مساهمة المغاربة في المجهود العسكري كانت كبيرة، حيث قدمت الجزائر طيلة الأربع سنوات للحرب سواء من جنود أو عمال 200ألف، وهو ما يعادل 4%من ساكنة الجزائر، و20%من سكانها النشطين، وقدمت تونس 80.339، و40.398 بالنسبة للمغرب الأقصى، مما رفع عدد المشاركين من البلدان الثلاث طيلة الحرب إلى 300ألف جندي، مما جعل الخسائر في صفوفهم مروعة. كما كان لهؤلاء الجنود المسلمين دور بالغ الأهمية في عديد المعارك الطاحنة[8]. وقد رصدت دراسة تلهين أن مجموع العام للمجندين المغاربة في الحرب بلغ 518.698 منهم 173 ألف من الجزائريين، و60 ألف من تونس، و37.150من المغرب الأقصى، فقدرت بذلك نسبة المقاتلين من شمال إفريقيا بـ 63%و أن 13%منهم قتلوا بالإضافة إلى الآلاف من المفقودين[9] هناك مسألتان جديرتان بالدراسة همّا: أهداف الجزائريين من المشاركة في الحرب، والطريقة الفرنسية التي استعملت لتجنيدهم، أي كيف حصلت فرنسا على ولاء الجزائريين لها ؟ بإمكان الدارس أن يتساءل كيف وضعت الحرب العالمية الأولى الحركة الوطنية الجزائرية أمام معسكرين؟ معسكر الأعداء ومعسكر الأصدقاء[10].

إن فرصة الاختيار كانت غائبة منذ سنة 1830، حيث فتحت الحرب أمام الحركة الوطنية الجزائرية أفاقاً بخصوص فكرة توازن القوى، فقد كانت ألمانيا والدولة العثمانية المنافستان لفرنسا، صديقتين في نظر الجزائريين. ففي سنة 1915، كتب أوغسطس برنار ما نصه :» مؤكد أن ألمانيا بدأت دعايتها في الجزائر منذ سنة 1910، وكانت تصر على ألمنة الجزائر، وبث دعايتها عن طريق السياح والتجار، والمثقفين، والجواسيس الذين ترددوا على الجزائر قبل الحرب، واستعملوا كل الفرص لإثارة الجزائريين ضد فرنسا[11]»

يبرز سعد الله في كتاباته أن الدعاية الألمانية – العثمانية في أفريقيا الشمالية عموما، وفي الجزائر خصوص كانت سطحية فلا إعلان الجهاد والنشاطات الدعائية قد نجحت في خلق ثورة جزائرية[12] لصالح الجامعة الإسلامية[13]. بدأت تأثيرات الحلف التركي الألماني، ودعاية الجامعة الإسلامية تتوغل في أوساط المجندين المغاربة في جبهات القتال فالحديث عن وفاء وإخلاص الجزائريين لفرنسا خلال الحرب العالمية الأولى لم يكن سوى من طرف المجندين المتجنسين فقط والذين وصل أفرادهم إلى رتبة ملازم[14]

وتجدر الإشارة هنا أن من الذين شاركوا في النشاط المعادي لفرنسا خلال الحرب الشيخ محمد الخضر حسين (1876-1958)، فقد اشترك في تأسيس اللجان المضادة والكتابات وتوعية الجنود الهاربين، كما مثل قضية الجزائر وتونس في المؤتمر الثالث للقوميات الذي انعقد بلوزان سنة 1916رفقة محمد باش حانبه (1881-1920) . طالب هذا الأخير باسم

القومية الحكم الذاتي لكل بلدان أفريقيا الشمالية. وأنشئت خلال هذه المرحلة : لجنة استقلال الجزائر وتونس[15]. كما أصدرت دورية بعنوان مجلة المغرب في برلين بقيادة صالح الشريف التونسي(1869-1920) مكونة من التونسيين والجزائريين الهاربين من الجيش الفرنسي[16]. ومن هنا نستشف انتهاج ألمانيا لسياسة إسلامية ذكية، قامت على الترويج لاحترامها للإسلام والمسلمين، واعتماد سياسة الجامعة الإسلامية باستقطاب رموز الدين الوطنيين الذين وفدوا على الأستانة، ووظفتهم في الدعاية العثمانية الألمانية.

شخصية رابح بوكابوية المدعو الحاج عبد الله

ولد رابح بوكابوية في الشرق الجزائري بمدينة ميلة سنة 1871في وسط عائلة برجوازية، تخرج من مدرسة بوزريعة بالعاصمة الجزائرية، واستقر بقسنطينة منذ العام 1910، امتهن التعليم حرفة له، كما تقرب من رجال الإصلاح مثل الدكتور موسى بن شنوف والمحامي مختار الحاج أحد أبرز وجوه حركة الشبان الجزائريين[17] انخرط في صفوف الجيش الفرنسي وتقلد رتبة ملازم، كانت مشاركته في الحرب إلى جانب الجزائريين في الفرقة السابعة (الترايور). فر من الجيش الفرنسي في أفريل1915 رفقة 78 من جنوده أغلبهم ينتمون إلى عمالة قسنطينة في منطقة بايلي بـ لا سوم(Bailly -Somme)، وكانوا ينتمون للفيلق السابع للترايور الجزائريين، وكان هذا بسبب سياسة التهميش والتمييز وعدم تقليده لرتبة نقيب بعد مقتل قائد فصيلته، حيث استبدل بمعمر من الجزائر خريج مدرسة مليانة العسكرية، مما تسبب في إهانته بهذا الشكل اللافت للنظر الذي يدل على سياسة التفرقة والتمييز العنصري، خاصة أن فرنسا كانت تقوم بمراقبة المجندين الجزائريين باستمرار وخاصة الذين ينتمون إلى فيالق الخيالة والترايور[18]. تذمر بوكابوية من الحراسة الأمنية المشددة على الكوادر الأهلية[19](indigène) من طرف الشرطة العسكرية الفرنسية في المعسكرات، وكانت الرقابة مشددة بشكل رهيب على الضباط والجنود الجزائريين.

بعد فرار بوكابوية وجنوده تم اعتقالهم من طرف الألمان الذين وضعوهم كأسرى حرب تحت الرقابة والبحث في أسباب الفرار من الجيش الفرنسي .وقد تم نقلهم بعد التحريات والاستجوابات من طرف الاستخبارات الألمانية إلى محتشد الهلال بزوسن(Zossen) التي تبعد ثلاثون كلم عن برلين[20]. من الواضح أن الألمان كانت لهم سياسة واضحة في التعامل مع الأسرى المغاربة عامة والجزائريين على وجه الخصوص . وتندرج المعاملة طيبة من أجل كسب الولاء ومعرفتهم الدقيقة بالحقد الدفين لدى الجزائري تجاه المستعمر الفرنسي الذي استعمل سياسة البطش والتمييز العنصري في التعامل معهم رغم تجنيدهم في الجيش الفرنسي.، ولتبيان تعاطفهم مع هؤلاء الجنود، قدموا لهم بدلات عسكرية تركية، وأطعموهم الطعام الحلال وفق الشريعة الإسلامية.[21] يعد بوكابوية من أبرز الجزائريين المثقفين المتجنسين الذين كتبوا باللغة الفرنسية عن المؤسسة العسكرية بلسان حاذق.

لقد مكث بالسجن ببرلين رفقة الفارين معه بغرض التحقيق، ثم انتقل بعدها إلى عاصمة الخلافة العثمانية ووضع نفسه تحت خدمتها، وبعدها عاد إلى سويسرا للعمل الدعائي إلى جانب الألمان. في كاريسه تناول أوضاع الجزائريين خاصة، والمغربيين والتونسيين عامة في صفوف الجيش الفرنسي. سيما ما يتعلق بالإسلام في أوساط المجندين.

وقدمت فاصيل عن الشعائر الدينية من صلاة وصوم وأطعمة وأشربة وهو الأمر الذي تفطنت له فرنسا فأضحت تفكر في إيجاد حلول ملائمة بغية كسب تعاطف المسلمين مع القضايا الفرنسية خلال وبعد الحرب العالمية الأولى.

ما كان لدعاية الألمانية أن تمر دون أن ترج فرنسا، وتجبرها على الرد عليها بسرعة وبإجراء مماثل، إيهاما منها للمسلمين بأنها أحرص من غريمتها على تمكين مجنديها من أدائهم لشعائر دينهم في أفضل الظروف، فقررت تشييد جامع شبيه بالذي شيد في برلين بأمر من الإمبراطور الألماني. وقد تم إعداد جامع وقتي بسرعة سنة 1916 بالضواحي الباريسية، وبانتهاء الحرب وتقدير السلطات الفرنسية لدور جنود بلاد المغارب في الانتصار لها، كان وراء إجماع مختلف عناصر النخبة الفرنسية آنذاك على مكافأة بطولاتهم وتضحياتهم بتشييد جامع ضخم في قلب العاصمة باريس[22]. قام بوكابوية بالدعاية حيث أصبح صحافيا في (Gazette des Ardennes) لمحور ألمانيا تركيا في كرافل(Krefld) بألمانيا وسويسرا في صفوف معتقل الصليب الأحمر الدولي بلوزان.

يبدأ بوكابوية بكراس استطلاعي من ستة وأربعين صفحة بعنوان: «الإسلام في الجيش الفرنسي (حرب 1914-1915)»[23]، ليدرس فيه نصوصا يشيد فيها بتضحيات أبناء شمال أفريقيا المسلمين في الجيوش الفرنسية خلال الحرب العالمية الأولى من جزائريين وتونسيين ومغربيين، وكيف أبدوا الولاء التام لفرنسا الاستعمارية، وهو الأمر الذي استغرب له المستعربون الفرنسيون وحتى المعمرين أنفسهم، ومما جاء في سياق الكراس الدعائي : «من المفروض أنّ مسلمي شمال إفريقيا، الذين أعطوا أفضل أبنائهم للقتال في صفوف الفرنسيين، يتعرّفوا على الوضع الحقيقي الذي يواجهه الجنود المسلمون تحت تصرف الكوادر الفرنسية خلال هذه الحرب الرهيبة.

يجب أن يعلموا أنه في اليوم التالي لإعلان الحرب بين ألمانيا وفرنسا، استجاب المسلمون بحماس لدعوة فرنسا للقتال في صفوفها: تم استدعاء المتقاعدين المحلِّيّين للخدمة من جديد؛انضم مجندو «التجنيد الإجباري «إلى وحداتهم؛ وحدات كبيرة من القُوميّة والمجنّدين لـ «مدّة حرب» تم استدعاء المتقاعدين المحلِّيّين للخدمة من جديد؛انضم مجندو «التجنيد الإجباري «إلى وحداتهم؛ وحدات كبيرة من القُوميّة والمجنّدين لـ «مدّة حرب»، – أغلبهم من أبناء العائلات المتميزة – تجندوا تحت الأعلام الفرنسية، وجميعهم، أبناء خيمة كبيرة مثل فلاحين بسطاء، مندمجين في نفس الشّعور بالولاء، انضموا إلى العناصر العادية منَ الصّباحي والرُّماة ورَكبوا اتجاه الحدود الفرنسية الألمانية.

هذا يعني في كلمة واحدة، بأنّ المسلمين من جميع الفئات، سواء كانوا جزائريين أو تونسيين أو مغربيين، كان لديهم في هذه المناسبة، موقف ولاء والذي فاجأ حتى المستبسلين في كراهيّة العرب ! ولكن، ومن جانب أفكار لازمة، سنحاز مباشرة لطرح بعض الأسئلة ونسائل العقلية الفرنسية – ممثلة في هذه الحالة بهرم الكوادر الفرنسية الذين كانوا مسؤولين عند فعال جنود المسلمين إلى النار - إذا، وتعويضًا عن حماس المسلمين المثير للإعجاب، كان هؤلاء الكوادر، من جانبهم، خلال عمليات حرب التموقع أو الميدان المفتوح، قد احترموا أبسط قواعد التعالي أو أظهروا ببساطة لهؤلاء الجنود الذين أعطوا أنفسهم لفرنسا جسدًا وروحًا أظهروا معاملة خاليةً من الاحتقار والكراهية العنصرية؟»[24]. كما بين الدور الطلائعي

الذي يقوم به الأعيان والمثقفون تجاه مواطنيهم تحت طائل الصمت والمأساة الاستعمارية، وتذكيرهم بمساعي تركيا وألمانيا التي استقبلت الآسرى بحفاوة وقدمت لهم كل التسهيلات من مأكل ومشرب وسمحت لهم بممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية واطمئنان[25]. ومما جاء في ديباجة أهمية الكتاب ما يلي : **«تم إعداد هذه الوثيقة لهذا الغرض. المسلمون إخواننا سيجدون، أدناه، مذكورين بدقة صارمة – وإذا لزم الأمر مع أدلة داعمة – جزءًا من أعمال الاضطهاد الفرنسي . سيلاحظون بصعوبة أن العناية الفرنسية في الماضي فيما يتعلق بالجنود المسلمين قد انتهت؛ سوف يرون أن ازدراء وكره العرق قد ازداد في إطار كراهية العرب الطموح بشكل واضح؛ سيرون هناك، أخيرًا، أن حركة فرنسا ضد تركيا خلق لدى القادة الفرنسيين للجنود المحلّيين عداء تجاوزت أفعاله الاستبدادية أهوال الحرب نفسها!»**[26]

تتميز كتابات بوكابوية بأنها كراريس محورية فقد قدم عنصرين جاذبين ومفيدين هما: عنصر تضحيات المغاربة عبر الإحصاءات، وهو أمر لابد منه لفهم سياق الأفكار الذي وردت في الكراستين، وعنصر المشاهد لأحداث الحرب والسيناريوهات التي شهدها الكاتب خلال مجريات الحرب في كلا المعسكرين[27] لاشك في أن بوكابوية واع لظاهرة الحرب وتغيير موازين القوى، ولعل الفكرة الدافعة التي نقرأها صراحة في نصوص الكتابين هي فكرة إحداث القطيعة بين الولاء لفرنسا والتصور الاستعماري لها، وفكرة الهروب والفرار والدعاية المغرضة للسياسة المتغطرسة لفرنسا تجاه مستعمراتها. وفي المقابل، يتابع بالدراسة والتحليل الخطاب الذي بينه في سويسرا من خلال كراسه حول تجنيد ساكنة شمال أفريقيا خلال الحرب، وقد عبر عن ذلك «يطلق اسم متطوعون لـ «مدّة حرب» على المسلمين الذين سجلوا أنفسهم، وقت إعلان الحرب بين فرنسا وألمانيا، للقتال في صفوف الفرنسيين طوال كلّ مدّة هذه الحرب وهي تساوي منحة الدخول في الحملة بـ 100 فرنك؛ حيث رفض العديد من المتطوعين المكافأة الذين أعطوا أنفسهم لفرنسا جسدًا وروحًا أظهروا معاملة خاليةً من الاحتقار والكراهية العنصرية؟»[28]. تدخل هذه المنعطفات في إطار حركية ودور الإسلام في يقظة شعوب المستعمرات والحق في تقرير المصير، كما افتعل بوكابوية فكرة استقلال بلاد المغارب لأول مرة في كراسه.

يقودنا بوكابوية إلى ذكر سلسلة من الانتقادات الموجه لوزارة الحرب الفرنسية في طريقة تجنيد الكوادر والجنود المغاربة في صفوف الجيش الفرنسي والتغييرات التي أحدثتها الإدارة العسكرية منذ أكتوبر 1914 منها تكوين أفواج المقاتلين المشاة ودمجها في فرق مختلطة «الزواف»[29] وأكد في كراسه بأنه يستند إلى حقائق هي عبارة عن شكاوي مقدمة من طرف المغاربة أنفسهم. لقد بين بوكابوية بوضوح القضايا التي سجلها في كراسه الدعائي، وهي مرتبة وممنهجة بالتفصيل من خلال عشرة حقائق:

«لقد أوضحنا بإيجاز في تنيهنا سلسلة من الانتقادات للحالة المؤسفة والمسيئة التي يقع ضحايا فيها الجنود المحليون في الصّفوف الفرنسية. سنحلل، أدناه، بصدق مخلص، مجموعة كاملة من المظالم أو الاعتبارات التي من المهم سردها بالترتيب التالي:

I- التجنيد الحالي كما هو معمول به للقوات الأصلية في خدمة فرنسا؛ فعل الكوادر الفرنسيين فيما يتعلّق بجميع القوات

الأصلية.

II- الكوادر من الأصليين؛ تجنيدهم ودورهم.

III- التعديلات التي تم إجراؤها مؤخرًا (أكتوبر 1914) على تشكيل أفواج الرُّماة في ما يسمى أفواجًا «مختلطة من الزُّوَّاف – الرُّماة».

IV- اقتطاعات غير منتظمة لوحدات من تونس والمغرب للقتال في فرنسا.

V- ترتيب معركة للقوات الأصلية خلال العمليات الحربية (في الخنادق وفي الميدان المفتوح).

VI- الحرمان الجلي من خلال أعمال إشباع لعناصر الراحة المعنوية أو المادية: الملابس، الطعام، الخدمة الصحية، فترات الراحة؛ فترات النقاهة للجرحى ذوي الإصابات خطيرة، رفض النقاهة للجزائر، الخ.

VII- تدنيس دين المسلمين في صفوف الفرنسيين. من خلال طريقة دفن الموتى.

VIII- رقابة صارمة على مراسلات الجنود المسلمين.

IX- الجنود المسلمون سجناء في ألمانيا.

X- الخلاصة[30].

اللافت للنظر أن بوكابوية في كراسه امتدح أوضاع الأسر في معتقل الهلال ببرلين، وتحدث عن أوضاع جنود بلاد المغارب ومسلمي الهند وروسيا، وكيف أن ألمانيا تحترم الإسلام وخاصة ما يتعلق بالأطعمة والملبس وظروف الإقامة، ومما يؤكد هذه الأطروحة ما جاء في سياق كتابه: **«ولكن، إذا تم اختبارنا كضحايا وشهود عيان في صفوف الفرنسيين، فمن واجبنا هنا أن نذكر مع الاعتراف الشّرعي كل العناية الّتي وجدها السّجناء المسلمون لدى الألمان. – أصدقاء وحماة الإسلام من هنا وصاعداً .هؤلاء السجناء أُسكنوا في معسكر ات مزودة بجميع وسائل الراحة الحديثة مثل إضاءة كهربائية حمّامات مغاربية على الطّريقة التُّركية محاطة بعناصر ترفيهية على شكل مقاهٍ مغاربية أو فواصل أخرى حسب ذوق المسلمين. المنظر الطبيعي مُشتمل على نباتات صحية وممتعة. في خضم هذا المعسكر الهائل، أقامت ألمانيا المُحسنة مسجدًا رائعًا للجنود المسلمين المسجونين لأداء واجباتهم الدينية!»**[31]، وهو الأمر الذي جعلها تشيد لهم مسجدا لإقامة الشعائر بكل حرية، والسماح لأئمتهم من تأطيرهم في المناسبات والأعياد، وزيارة إمبراطور ألمانيا لهم. كما أشار إلى خطاب أحد الجزائريين الذي شهر بجرائم الاستعمار الفرنسي بالجزائر وتكذيب أطروحاتهم الرامية إلى تشويه الألمان بأنهم برابرة وسفاكين للدماء وما تروجه دوائرهم في جبهات القتال. وفي الختام نوه بعدم احترام الاستعمار الفرنسي لشعور المجندين المغاربة في تمثيل مواطنيهم في المجالس النيابية وممارسة عليهم منطق الديكتاتورية من طرف المعمرين. وترك الآلاف منهم يعيشون تحت وطأة الفقر والبؤس والإهانة، ومحاربة الإدارة لتيار حركة الجامعة الإسلامية وحركة الشبان سواء في الجزائر، أو تونس أو المغرب.

نستشف من نصوص الكراسة أنه نوه بتضحيات مسلمي بلاد المغارب لما قدموه من تضحيات جسام خلال الحرب

العالمية الأولى، وبأن الحاضر والمستقبل يخبأ لهم مصير مجهول[32].

يذهب بوكابوية للتذكير بأن الكوادر المغاربية العسكرية كانت عبارة عن رسائل موجهة لجبهات القتال بدون هوادة، وأنه منذ سبعين سنة في الجزائر لم تفتح الإدارة الاستعمارية مدارسها لأطفال الجزائر عدا أبناء العائلات الكبرى والقياد المتعاونين معها، كما ذكر بالترتيب الهرمي للرتب العسكرية داخل الجيش الفرنسي من رتبة عريف إلى لواء، وأن هناك ثمانية عشر رتبة لم يحظ مجندو بلاد المغارب وبالأخص الجزائريين منهم سوى على أربعة رتب، لا يستطيع المسلمون الوصول إلا إلى أربع درجات دنيا، أعلاها ملازم من بين هذا العدد. ونستشف هذا التقسيم في البيانات التي قدمها بوكابوية : «يتألف التسلسل الهرمي العسكري الفرنسي من(18) رتبة تتراوح من العريف إلى اللواء.إن رتبة ملازم هي العائق أمام الترقية، وبالتالي، فإن الرتب التي لها إسناد محاسبة أو إدارة أو قيادة فعلية لقوة ما، ليست متاحة للمسلمين. من بين 200 ألف عربي جندي، لا يوجد ضابط واحد لديه قيادة فعلية، أي قيادة إدارية لقوة ما (سرية، فصيل أو حتى قسم) من نوعه !لماذا ؟ دائما نفس الجواب: الافتقار إلى التعليم وبالتالي عدم قدرة لدى الضباط الجزائريين القدرة على قيادة القوات؛أو عدم انتظام في الأعراف الفرنسية .بالنسبة للعجز بسبب نقص التعليم، سوف نسأل عما قامت به فرنسا من الملايين التي تدفعها سنويًا كضرائب على المسلمين لتعليم الجماهير. أليس من العار لفرنسا، في الواقع هو عدم الثقة.هاهو، عدم الثقة الفرنسية في مقابل ولاء المسلمين !التي تدعي أنها اخترعت الحضارة والإنسانية، أن يكون لها ملازمون جزائريون لا يعرفون لا القراءة ولا الكتابة! فيما يتعلق بعدم الانتظام في الأعراف الفرنسية، نطلب ممن يدّعون أخذنا نحو الحضارة ألا يعرضوا كل هذا القدر من الكتابات بأحرف كبيرة لإعلان الإدماج والمصالحة، إلخ . هذه المفردات ليس لها مزايا أخرى لنا سوى إبعادنا عن ديننا ووصمنا بشيء من «تخفيض درجة».لا تزال هذه هي الأسئلة الرئيسية التي سيعرف وجهاءنا المسلمون كيف يطالبون بها أمام من يهمه الأمر. لا يجب أن يكون الجنود المسلمون عمالًا مجبرين إلى الأبد تحت سوط الفرنسيين الجدد أو سيوف الإسلام الآخرين. فالمساواة في الرتب أو الأوسمة التي كان ثمنها باهظا أو تدمير العسكرة الإسلامية؛فكان هذا الأخير هو الأكثر ملاءمة.»[33]

أثار بوكابوية بصفته شاهد عيان ورجل ميدان حول إدماج المشاة الزواف وبأنهم يدافعون عن الأراضي الفرنسية، في الوقت الذي تنتهك فيه قوات الكولون أراضيهم وتحاول تخريب عاصمة الخلافة الإسلامية باستانبول وبلاد الحرمين الشريفين، وهو من هنا يحاول إثارة حفيظة المغاربة للتعاطف مع ألمانيا وواثارة الاضطرابات بين صفوف المجندين المغاربة ضد الجيش الفرنسي. اهتم أيضا بمسألة التجنيد الإجباري الذي طال شباب بلاد المغارب والجزائريين منذ العام 1912[34]

أشار بوكابوية إلى حادثة مقتل 27 شاب تونسي بسبب فرارهم من التجنيد بدون محاكمة، وتساءل عن الضغوطات الممارسة ضد باي تونس(محمد الناصر :1906-1922) وسلطان المغرب الأقصى (مولاي يوسف بن الحسن: 1912-1927) الذي أجبرته الإدارة الفرنسية على الإقامة الجبرية بقصره بالرباط، ومما جاء نصه : «اقتطاعات غير نظامية لأفواج تونسية ومغربية على للقتال في فرنسا. وفقًا لمعاهدات الحماية الموضوعة لتونس والمغرب الأقصى، لن يضطر الجنود المسلمون من هذين البلدين الخاضعين لنظام حكومي خاص إلى أن يكونوا، خلال حرب فرنسا في الخارج، مبعدين عن أوطانهم.لذا،

بأي حق قامت فرنسا بحمل الأفواج التونسية والمغربية للشروع في القتال على الحدود الفرنسية الألمانية؟. وقد أدّت هذه الانتهاكات إلى إثارة احتجاجات مشروعة من المسلمين المعنيين. لقد تم تجنيد الجنود بالقوة في تونس. رفض جميع رجال الكتيبة الخضوع للمطالب، كما تم تجنيد الجنود بالقوة في تونس. وقد رفض جميع رجال الكتيبة الخضوع للمطالب الظالمة للسلطات الفرنسية؛ وقتل على إثرها 27 تونسيا. بالإضافة إلى انتهاك حق الناس، فهناك جريمة الإعدامات التعسفية! إن فرنسا، من أجل التصرف الحر في أفعالها الاستبدادية، احتجزت باي تونس في فرنسا وسلطان المغرب الأقصى في حصن بالرباط. ولا تزال تنتزع من أسرهم، على الرغم من احتجاجاتهم، وحدات والتّي لا يوجد أي قانون يخضعها للخدمة العسكرية. ففي المغرب الأقصى، كانت كأنّها خدعة روحية. كتائب المطاردين المغربيين الأصليين، وقت سفرهم إلى فرنسا، تم إقناعهم بأنهم ذاهبون إلى هناك لجلب علم فوج مغربي جديد!...تحت هذا العنوان، سوف نعرض الظروف الاستثنائية التي يتعرض لها الجنود الأصليون في الحملة، أي في الحرب.من حيث المبدأ، يشكل المسلمون ما يسمى بعناصر الصدمة عندما يتعلق الأمر بالعمل في العراء، أو القوات الأمامية عندما يتعلق الأمر بالقتال في الخنادق حيث تدفق عناصر الصدمة في كتل ملتحمة على العدو في عمل حاسم وفي الهجمات؛هذا ما جعل كتائب كاملة من الرماة تُباد جميعها في بعض المعارك[35].

أسهب بوكابوية في ذكر ظروف المجندين حيث كتب بازدراء عن سوء التغذية وانعدام المرافق الصحية وتفشي الأمراض الصدرية والمعدية بين صفوف الجنود بسبب البرد وقلة الطعام، والاستهتار بالمقدسات الإسلامية مثل الأعياد، وصوم رمضان. ومما جاء في نص الدعاية لهذه القضايا الهامة حول وضعية المجندين على جبهات القتال الأوروبية: «هلمُ نِحلل قوات الأصلية، أثناء إقامتها التي لا تنتهي في الخنادق الموحلة وغير الصحية، عناصر الراحة من خلال وضعها بشكل من الأشكال في مأمن من مناخ قاسي بشكل خاص بالنسبة لهم؟ سنرد للأسف بسلبية قاسية. لقد ذهبوا من الجزائر أو المغرب الأقصى بألبسة قماشية، وبهذه الثياب الملائمة لحرارة إفريقيا تحملت هذه القوات، لعدة شهور، كل الطقس السيئ في شمال فرنسا. في ذروة فصل الشتاء، شوهد الرجال في الخنادق – معظمهم مفتوح – يرتجفون وأقدامهم غارقة حتى رُكَبِهم في الماء. نظرًا لإسقاط حزم الحملات في المعارك المبكرة، لم يكن لدى معظمهم ولا حتى أغطية قدم.كانت القوات الفرنسية تتلقى باستمرار ألبسة جديدة، وعندما تقرر لاحقًا تزويد السكان الأصليين ببعض الألبسة، كان بالثياب القديمة للقوات الفرنسية المستعملة جدًا التي تمّ إلباس السكان الأصليون.ماذا عن الخدمة الصحية؟الرّماة المصابون بالتهاب الشعب الهوائية والنزلة والزحار وقضمة الصقيع والأنفلونزا والألم العصبي والأعراض الأخرى الناتجة عن الإقامة الطويلة في البرد والمطر، لا يجدون من لُطفٍ لدى الأطباء الذين تلقّوا أوامر قاطعة من القادة «سيوف الإسلام». بمجرد أن يغامر الطبيب – عندما يكون وافدًا جديدًا على الجنود الأصليين – في بعض الرعاية الإنسانية أو أوامر الإخلاء لمرض خطير يتعلق بالجنود المسلمين، يتم على الفور إنذارهم من قبل أي كارهٍ للعرب. ونتيجة لذلك، تخلى معظم المقاتلين عن «زيارة» الطبيب لتجنب «علاج» السوط.

«يعالج الجرحى على بعد بضع مئات من الأمتار خلف خط النار في أقبية أوثق وبمصممة لهذا الغرض... انتهاك دين المسلمين في الصّفوف الفرنسية. خاصة ما يتعلق بدفن الموتى.لماذا إذن، إلى جانب الكهنة الفرنسيين والإسرائيليين، لم يكن

هناك مُفْتٍ واحد أو إمام أو مجرد طالب كان من الممكن أن يُمنح رسميًا لقبًا دينيًا لمساعدة بعض من المحمديين البالغ عددهم 200000 الذين يقاتلون في الجيش الفرنسي ؟ الوقائع موجودة ولا جدال فيها. قدم الكهنة الفرنسيون واليهود خدمات جليلة لإخوانهم في الدين؛ترأسوا الجنائز؛رتبوا بالوسائل الموضوعة تحت تصرفهم القبور والمقابر المناسبة؛ حضورهم في الصفوف الأولى والثانوية من أماكن القتال أراح أتباعهم بشكل فعال؛لقد قدموا قُدَّاسات التي استمع إليها أشدّ الكفار من طوائفهم بخضوع كبير ... لقد فعلوا الكثير ...في هذه الأثناء، الدين والأعياد المقدسة والصوم (رمضان) والعادات المقدسة للمسلمين كل ذلك تمّ الدّوس عليه بلامبالاة وحقة من قبل الكوادر القمعية. الآلاف من المسلمين الذين ماتوا في ميدان الشرف تم دفنهم مثل رزم قذرة دون أدنى مظهر للدفن وبدون أدنى استخدام للطقوس..»

و بخصوص مراقبة الرسائل القادمة من البلاد المغاربية، ذكر ما نصه : «رقابة صارمة على المراسلات العسكرية للسكان الأصليين.. .تعرضت مراسلات الجنود الأصليين مع والديهم من الجزائر أوتونس أو المغرب الأقصى في جميع الأوقات لرقابة شديدة بشكل خاص.

أخذت السلطات الفرنسية ترتيباتها بحيث يكون لها طابع العزلة الكبيرة بين العنصر المدني في المستعمرة والعنصر العسكري فيما وراء البحار... تخضع الرسائل الواردة من الجزائر إلى الجنود الأصليين في فرنسا، قبل أن تصل إلى المرسل إليهم، لرقابة البوليس السّري والاستخبارات العامة؛أي أن المراسلات المصرح بها تستغرق شهرين على الأقل للوصول[36].

يستمر بوكابوية في كراسه إلى تقديم بعض معطيات الحرب العالمية الأولى ووضعية المجندين المغاربة، فتساءل عن جحم مسلمي شمال أفريقيا لعدد مجنديهم في هذه الحرب إلى جانب الجيوش ؟، والبالغ عددهم بنحو 200 ألف، وقدم إحصائيات عن تعدادهم في هذه الحرب وأهم الفرق المشكلة لتلك الوحدات القتالية: والجدول التالي يوضح الفرق حسب أعدادهم[37].

جدول الفرق المشكلة في وحدات القتال بالجبهات الأوروبية:

الفرق المشكلة في وحدات القتال بالجبهات	عدد القوات
رماة جزائريون وتونسيون مرتبطون بالخدمة من خلال التزام طوعي:	47 ألف
رماة جزائريون وتونسيون خاضعون لواجب الخدمة العسكرية (مرسوم "تجنيد إجباري"):	60 ألف
مسلمون جزائريون وتونسيون ملتزمون طوعيا خلال "مدة الحرب ":	10 ألاف
أفواج الفرسان الأصلية(صبايحي، صبايحي مساعد ملتزمون خلال "مدة الحرب"):	20 ألف
الإضافيون	137 ألف
أفواج من الثومية المسماة صبايحي مساعد المشكلة لفيلق	15 ألأف
عناصر من الجنود الأصليين موزعين في الفيالق الفرنسية المسماة "المساعدة".	10 ألاف
كتائب مغاربة تعرف بـ "الصيادين الأصليين"	15 ألف
سلاح الفرسان المغربي	10 ألآف
المجموع	187 ألف

لا يشمل هذا الرقم أسراب المهاري الجنوبية ولا العناصر الراجلة من هذه المنطقة والتي يمكن تقديرها بأكثر من 10000؛ فضلا عن العناصر المتروكة في مستودعات التدريب للجزائر وتونس والمغرب الأقصى. ينتج من هذا التعداد التقريبي للمقاتلين أن أكثر من نصفهم كانوا مطالبين بأداء الخدمة العسكرية الفرنسية. وبالتالي لم تعد زمرة مؤلفة فقط من «مرتزقة» كما يسمونها هناك؛ لكن عسكرين «مجنّدين» من دون الحقوق السياسية التي يتمتع بها المجنّدون الآخرون غير المسلمين.

في إطار سياستها أثناء الحرب العالمية الأولى، قامت فرنسا على الإحاطة بمجندي بلاد المغارب، والرد على الكراسات التي نشرها بوكابوية في دعاية مغرضة من قبل شخصيات جزائرية استقدمتها إلى باريس هما: عبد الرحمان القطرانجي، وبومزراق الوانوغي بن أحمد بومزراق من مواليد مجانة سنة 1862. وقد تم الرد أيضا على فتاوي علماء استانبول بخصوص جهاد الفرنسيين خلال الحرب[38] كما طلبت فرنسا من أحد ضباطها الجزائريين المخلصين وهو العقيد شريف قاضي من منطقة قالمة بالرد على بوكابوية[39] وتجدر الإشارة هنا أن فرنسا كلفت الوانوغي والقطرانجي بالرد بكراريس دعائية على بوكابوية، الموسومة بـ «الإسلام في الجيش الفرنسي رد على أكاذيب»[40].

باندلاع العمليات العسكرية بادرت وزارة المستعمرات الفرنسية إلى وضع بنايات في البستان الاستعماري[41] على ذمة مصالح الصحة، فتم بها بناء مستشفى عسكري للمجندين المسلمين بمقتضى قرار وزاري، مؤرخ في 4 ديسمبر 1914. فتعالت أصوات العديد من المسؤولين الفرنسيين منادية بضرورة الإسراع بإنجاز مسجد مماثل لألمانيا، تمثل في تشييد مسجد البستان الاستعماري. عهد بالإشراف على الإنجاز إلى الشيخ بومزراق، وعبد الرحمان القطرانجي باش عدل بالمحكمة المالكية بمدينة الجزائر، حتى يكون المسجد مستجيباً من حيث اتجاهه ومكوناته إلى مقتضيات الشرع الإسلامي. وتسلم الوانوغي إمامة مسجد البستان يوم 14 أبريل 1916، فاستغل منبره للدعاية بالنصر لفرنسا وحلفائها، واستعملته وزارة الحرب الفرنسية في الرد على الكراريس الدعائية التي كتبها بوكابوية المدعو الحاج عبد الله[42].

والظاهر أن السلطات الفرنسية عهدت بالإشراف على الإنجاز المسجد إلى مفتي الأصنام (الشلف)، الشيخ بومزراق المقراني، حتى يكون المبنى مستجيبا حيث اتجاهه ومكوناته وفق مقتضيات الشرع الإسلامي [43]. وقد تم توجيه الوانوغي كإمام بفرنسا سنة 1915، ووضعه تحت ذمة وزارة الحرب الفرنسية، والرد أنجز تحت إشراف هذه الأخيرة وطبع في خمسمائة نسخة قصد ترويجها في كل المستعمرات في إطار الدعاية المضادة.

بإمكان الدارس للكراس الثاني لبوكابوية[44] أن يلاحظ أن كراسه عبارة عن رد صريح ضد الوانوغي والقطرانجي اللذين وصفهما بأنهما موظفين في القطاع الصحي بباريس لصالح مجندي بلاد المغارب، واتهمهما بخيانة الوطن وأنهم استعملوا كأبواق للدعاية الفرنسية «أبواق الدعاية التي كتبها كل من الوانوغي والقطرانجي لا تنفع وتجدي بشيء لأن المغاربة لهم دراية بما يجري من محدثات الأمور. وقد رد على كتاب أكاذيب بما نصه: «**أقول لهما (يقصد الوانوغي والقطرانجي) أنني عملت بمؤسسة الجيش الفرنسي مدة 23 سنة، وتقلدت فارس اللفيف الأجنبي، وطيلة الخدمة العسكرية، تحصلت على عديد الأوسمة والنياشين الدالة على حسن الخدمة المقدمة للجيش الاستعماري، وحاربت بجبهات القتال بأوروبا وكانت مشاركتي في**

الحرب العالمية الأولى ضد ألمانيا زهاء 8 أشهر»[45].

يمكن أن نلحظ محطات أساسية في الكراس الثاني حيث أوضح بوكابوية الصراع الاثني الذي أحدثه الاستعمار بين الفيالق المحاربة في الجيش الفرنسي والتفرقة بين السود السينغاليين والمغاربة، وخاصة الجزائريين منهم لإحداث القطيعة، فأورد مثل سينغالي كان يردد لنعت مسلمي شمال أفريقيا: «Moslem blan ,ya pas bon»[46] . نستنتج من هذا التمييز العنصري الواضح من طرف السلطات الاستعمارية تجاه مجنديها، يدخل في إطار سياسة التفرقة وعدم حدوث تجمعات وتكتلات من شأنها زعزعة الجيش خلال الحرب العالمية بين جنود المستعمرات.

والحقيقة أن بوكابوية تحدث أيضا عن التراتبية في الجيش، ووضع قوات المجندين المغاربة، وكيفية إقحامهم في جبهات القتال، وسياسة ألمانيا تجاه سكان شمال أفريقيا. تناول بوكابوية أساسا في مسائل مختلفة أهمها:[47]

- تجنيد المزيد من المجندين من شمال أفريقيا وأخدهم إلى جبهات القتال بأوروبا.
- تقديم فيالق المغرب العربي في مقدمة الصفوف على جبهات القتال.
- عدم الاهتمام بالمجندين المغاربة مطلقا خاصة ما يتعلق بالأوضاع الصحية والنفسية والمعيشية، وتكريس سياسة القمع والتسلط الاستعماري على الجنود في مجال أوقات الراحة وإخلاء سبيل الجرحى والمعطوبين.
- تدنيس الشعائر الإسلامية وعدم احترامها وعلى رأسها دفن الموتى وما يتعلق بمستلزماتها. وتخصيص أماكن لدفن المسلمين.
- تطبيق حراسة شديدة على جنود شمال أفريقيا وتفتيش أمتعتهم باستمرار مع قراءة الرسائل القادمة إليهم من ذويهم في جبهات القتال.
- أوضاع المجندين المسلمين في المعتقلات الألمانية.

يمكن الخروج بجملة من الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها من نصوص الكراستين التي تم دراستها، والغالب عليها أنها توزعت نحو محورين أساسين هما : معرفة واقعات وأخبار الحرب العالمية الأولى ومجرياتها وأوضاع مجندي بلاد المغارب :يتمثل المحور الأول في اهتمام معرفي بأوضاع المجندين الذي ينصب في الدعاية المغرضة المستوحاة من المخابرات الألمانية والتركية ضد الحلفاء .و لها علاقة بإقامة بوكابوية عندهم بعد فراره من الجيش الفرنسي، والمحور الثاني اهتمام معرفي بالدعاية لصالح محور ألمانيا تركيا، غير أنه امتد وظل فاعلا في زمن الحرب لكنه سرعان ما تبخر بعد نهاية الحرب وانتصار الحلفاء على دول المحور.

ويمكن في هذا الصدد أخذ انطباعات عدة من الكراستين:

أ- التحكم الجيد لبوكابوية لناصية ومفردات اللغة الفرنسية، وهذا يدل على المستوى الثقافي الرفيع الذي حظي به بوكابوية كأحد النخب الجزائرية المثقفة خلال الحرب العالمية الأولى.

ب- وضوح الأسلوب الدعائي المستعمل في كلا الكراستين من خلال توظيف الرموز السياسية كسلطان المغرب وباي تونس وخليفة المسلمين، وذكر المقدسات الإسلامية كالحرمين الشريفين، والحديث عن الشعائر الدينية لإيهاب المشاعر لدى مجندي بلاد المغارب.

ج- حرص بوكابوية على توضيح الرؤى السياسية لقضايا العصر، وهذا من خلال استعماله للمصطلحات التالية: التحالفات، القوى، الجامعة الإسلامية، التمثيل النيابي، تقرير المصير.

د- تقديم صورة حسنة لألمانيا وعاهلها في احترام الشعوب الإسلامية ومقدساتهم الدينية.

لا يمكن قراءة كتابات بوكابوية إلا من خلال إنتاجه للكراستين ما بين 1915-1917، فتتضح نصوص نشرياته على امتداد مجريات الحرب العالمية الأولى كمحطات استثنائية، تتجاذبه هموم الاستعمار في أبعاد ثلاث : بعد للتاريخ الاستعماري في منطقة شمال أفريقيا، وبعد كموضوع لدراسة أوضاع المجندين في الجيش الفرنسي بجبهات القتال، وبعد كطموح سياسي وهو يعيش بين تركيا وألمانيا لتحقيق مشروعه الدعائي في سياق معركة يفرضها منطق القوة والحرب بعالميته التي انتقلت كفتها إلى المحور مما يفرض على بوكابوية العيش في المنفى بعيدا عن الجزائر.

انطلاقا من هذا كله فإن بوكابوية يعد من أبرز الوجوه المفرنسة الجزائرية التي طرحت فكرة استقلال بلاد المغارب، وبالنظر لفراره من الجيش الفرنسي خلال الحرب وإقدامه على تشويه صورة المؤسسة العسكرية الفرنسية خلال الحرب اتهمت المخابرات الفرنسية بأن الكتابين من املاءات خفية، بعد توظيفه في وكالة أخبار الشرق ببرلين. فتحت الحرب العالمية الأولى الطريق نحو بروز فكرة المضمون الوطني والبذور الأولى للفكرة المغاربية بين المجندين، ذلك أن مشاركة أقطار المغارب، جعلت كلا من فرنسا وألمانيا الاعتراف بحق ممارسة الشعائر الدينية الإسلامية في أراضيها بين صفوف المجندين، وبناء المساجد كخطوة أولى لهذا الاعتراف، وهو الأمر الذي جعل فرنسا تعمل على إنشاء جامع ومعهد باريس من خلال تكاثف النخب الفرنسية والمغاربية من أجل تحقيق هذا المطلب الحضاري تحت المظلة الفرنسية. وفي هذا المسعى قامت السلطات الألمانية خلال الحرب العالمية إلى إقامة مسجد في محتشد الهلال بفنزدورف (Wunsdroff) قرب زوسين(Zossen)، على بعد ثلاثين كلم من برلين، وذلك بإذن إمبراطورها نفسه، قصد تمكين الأسرى المسلمين من أداء شعائر دينهم، وتم تدشين الجامع عشية حلول شهر رمضان يوم 14 جويلية 1914 بحضور سفير تركيا في برلين[48] صحيح أن الدعاية الألمانية من وراء هذه الكراريس قد فشلت في تحقيق أغراضها، وهذا راجع بالأساس إلى تجذر الاستعمار الفرنسي في البلاد المغاربية، وبفضل كوادر الإستشراق والنخب المحلية، فلم يحرك الجهاد ساكنا عندهم وراء فكرته الدينية والسياسية، وظل دون صدى يذكر. كما أدت النهاية إلى تراجع هيبة السلطان العثماني الروحية، ودعوته للجهاد التي أطلقها شيخ الإسلام، معتمدة على قوى مسيحية أوروبية(ألمانيا، النمسا)، فنزع عن تلك الدعوة صفة القداسة والشرعية، وشكل سلاحا في أيدي دول الوفاق لتضع حدا للخلافة العثمانية. وإعلان الحرب في سوريا والعراق والحجاز، وتحريض أشراف مكة على إعلان الثورة على العثمانيين وهذا لمصلحة فرنسا وبريطانيا، وأخذ الترتيبات التي مهدت للانتداب[49].

الخاتمة

بيد أننا في نهاية هذه الدراسة ننوه ونثمن الصفحات القليلة للكراستين على الجرأة السياسية الدعائية لبوكابوية والتي اتخذ ضجة إعلامية وقت ذاك ، وجعلت الأطراف الأوروبية تعير الإسلام اهتماما بالغا في سياستها الداخلية والخارجية عند التعامل مع الأشخاص والدول. وتغيير فرنسا لخارطة سياستها الدينية في شمال أفريقيا. رهانات ألمانيا وتركيا باءت بالفشل في إطار حركة تراجعية بسبب:

- سياسة الدولة العثمانية تجاه الولايات العربية، وسياسة الاتحاديين ،الذين قدموا القومية الطورانية على حساب الجامعة الإسلامية ومصالح العرب.
- شبكة التحالفات التي أقامتها فرنسا وبريطانيا مع الزعامات العربية .
- لم تتخذ ألمانيا في عين الاعتبار مصالح العرب القومية ولم تحاول استغلالها ،بل ظلت طوال الحرب تراعي مصالح حليفتها الدولة العثمانية لكي تستعيد سيطرتها على الوطن العربي بعد الحرب.

الهوامش :

1- ترجمة الكتاب والتعليق عليه كانت من طرف حنيفي هلايلي،وهو قيد النشر. وأصل الكتاب عنوانه :

Lieutenant El Hadj Abdallah, L'islam dans L'armée Française. (Guerre De 1914- 1915.), Constantinople, 1915.

2- غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا (ولد في 27 أبريل 1859 - 27 يناير 1941)،آخر قياصرة الإمبراطورية الألمانية وملك پروسيا (1888 - 1918) زار السلطان عبد الحميد الثاني (الدولة العثمانية) من خلال التحالف الألماني – العثماني .دخل الحرب العالمية الأولى مع دول المحور. أسقط عن عرشه عام 1918. بنهايته انتهى حكم أسرة هوهن تسولرن التي حكمت پروسيا منذ 1701. كان غليوم هو قيصر الحرب العالمية الأولى بين عامي 1914م و1918م.شهدت ألمانيا في عهد غليوم الثاني ازدهارا اقتصادياً ملحوظاً، فقد حصلت على مشروعات اقتصادية مهمة في الشرق العربي كمشروع سكة حديد بغداد

3- عبد الرؤوف ،سنو، «سياسة ألمانيا الإسلامية في حوض البحر المتوسط 1885 - 1918 «،ضمن كتاب : العثمانيون والعالم المتوسطي مقاربات جديدة،(تنسيق: عبد الرحمن المؤذن وعبد الرحيم بن حادة) ،ط1، طبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،المغرب،2003،ص ص 219-220.

4- مستشرق ألماني(1860-1946)، مستكشف من الطراز العالي، كتب عديد التقارير حول الصراع الألماني ضد كل من بريطانيا وفرنسا، وأوضح في كتاباته كيفية استغلال ألمانيا للإسلام والجامعة الإسلامية كوسيلة للدعاية ضدهما.

5- راجع: التليلي، العجيلي: «السياسة الدينية لفرنسا على الجبهة تجاه التونسين المجندين في الحرب العالمية الأولى «، حوليات الجامعة التونسية، عدد 32،(1991)ص ص 173-174. وأيضا: التليلي، العجيلي، صدى حركة الجامعة الإسلامية في المغرب العربي

1876 - 1918، ط1، تونس : منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات ،جامعة منوبة، 2010، ص ص 137-139.

6- حرر شيخ الإسلام خيري بن عون الأركوبي نص الفتوى يوم الجمعة 14 نوفمبر 1914، وعلق الباحث التونسي العجيلي التليلي بأن هناك خلط يقع فيه الباحثون بخصوص الفتوى الشريفة التي حررها شيخ الإسلام، ونص بيان المجلس الأعلى الذي أمضى عليه 28 من العلماء والمشائخ ، ينظر: التليلي،العجيلي، صدى حركة...،المرجع السابق، هامش رقم 2، ص 228. وقد قدم المؤرخ التونسي عبد الجليل التميمي التاريخ الصحيح لإعلان الجهاد المقدس .دراسات في التاريخ العربي العثماني 1453-1918، زغوان: منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والتوثيق والمعلومات، مارس 1994، ص 59.

7- حول الدعاية الدينية الرسمية للدولة العثمانية وفحوى فتوى الإعلان عن الجهاد ، يراجع بالتفصيل: التليلي،العجيلي،... صدى حركة، المرجع السابق، ص ص 225-242.

8- Meynier, Gilbert, « Les Algériens en France 1914-1918 », In, revue d'histoire Maghrébine, Tunis, n°5, 1976, pp.47-58.

9- Télhine,M, L'Islam et les musulmans en France, une histoire de mosquées, Paris, l'Harmattan, 2010.

10- أبو القاسم،سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية،طبعةخاصة،الجزائر: عالم المعرفة، 2011، ج2،ص 239-240.

11- نفسه،ص 241.

12- نفسه، ص 247.

13- تبنت الفكرة الدولة العثمانية، وكان من أبرز روادها جمال الدين الأفغاني(1838-1897) ومحمد عبده (1849-1905). ورشيد رضا (1835-1935) .ينظر:التليلي ،العجيلي، المرجع السابق، ص ص 95-99.

14- Meynier, Gilbert, « Les Maghrébins en France 1914-1918, l'insertion des maghrébins dans l'armée », In, Cahier de la Méditerranéé,n°6,1,1973,pp.38-46.,

15- شجعت هذه اللجنة هروب جنود أفريقيا الشمالية كما عملت على استقبالهم وتكوينهم الفكري.

16- سعد الله، المرجع السابق، ص ص 210-211.

17- حركة الشبان الجزائريين تنظيمسياسي أسسه رجال النخبة للمطالبة بالحقوق السياسية. وقد بأ نشاطهم السياسي منذ 1892 من خلال الرسائل والعرائض ،كما قام هذا التيار بنشاط ثقافي واسع في كبريات المدن الجزائرية وأسس جريدة المشعل سنة 1904، وأصبح الأمير خالد ممثله الرئيسي منذ العام 1913. للمزيد راجع: سعد الله، المرجع السابق، ص ص 173-186. وأيضا:

Ageron,Ch .Robert, Les Algériens musulman et la France(1871-1919),Paris, PUF, 1968,pp.64-66.

18- حول حياته يراجع:

Achour,Cheurfi, Petite Encyclopédie de l'Algérie ,Alger ,éd Dalimen,2012,V1,p.867.

Medarci ,Abdellali Auteurs Algériens de la langue Française de la période coloniale ,dictionnaire biographie,Paris,l'Harmattan,2010,pp.98-90.

في إطار بحثنا حول شخصية بوكابوية لاحظنا أن أخباره انقطعت في برلين سنة 1940، يراجع:

Gerhald, Höpp, Texte aus der frendeArabishe politische publizitik in Deutschlan 1896-1945,Ein bibliographieZentruöm Moderner Orient Germany 2000,p.29.

19- يعد مصطلح أنديجانا– الأهلي- حالة اجتماعية ،قانونية، سياسية، ثقافية تعبر عن السكان الأصليين ،الخاضعين للاستعمار، طبق هذا القانون في الجزائر في 28 جوان 1881، وهو امتداد للمكاتب العربية التي تأسست سنة 1844،و أقرته فرنسا في جميع مستعمراتها منذ العام 1887.و يميز بين صنفين من البشر: المواطنون الفرنسيون، والرعايا الفرنسيين: الأهالي. وهو يرمز إلى اللاعدالة الاجتماعية والقانونية، وقد بلغت المخالفات التي لحقت هذا القانون منذ 1874 وإلى غاية 1881 حوالي 27 مخالفة.بموجب قانون أبريل 1946 تم إلغاء قانون الأنديجنا، ولكنه أصبح ساءر المفعول عند الدوائر الاستعمارية وفي أذهان المعمرين إلى غاية استقلال الجزائر سنة 1962. للمزيد يراجع:

Dupuy,Aimé, « Remarques sur le sens et l'évolution du mots indigène », In, Information historiquenn°3 paris, 1963.

20- أنشأ معسكر الهلال في ناحية فنزدورف (Wunsdroff) ببرلين وتم تدشينه في 14جويلية بحضور سفير تركيا في برلين1915، وبنى له مسجدا بمئذنة خشبية ارتفاعها 23متر، وكانت الغاية من المعسكر إيواء الأسرى المسلمين الذين يحابون في جيوش دول الوفاق، وخاصة من شمال أفريقيا. بلغ عدد الأسرى إلى غاية 1916 حوالي 15 ألف. وانتهجت ألمانيا سياسة تقوم على استغلال الجهاد لمصلحة أهدافها الاستراتيجية تحت عنوان: «الجهاد العثماني وضع في ألمانيا». ولتفعيل الدعاية بين الأسرى المسلمين ،تم إنشاء مجلة الجهاد يشرف على هيئة تحريرها فريق من المستشرقين الألمان وشخصيات إسلامية مثل عبد العزيز جاويش(1876-1929) وصالح الشريف التونسي ومحمد خضر حسين. يراجع : عبد الرؤوف، سنو ،» الإسلام في الدعاية الألمانية في المشرق العربي خلال الحرب العالمية الأولى» ، في كتاب بحوث تاريخية مهداة إلى منير إسماعيل، تنسيق : محمد مخزوم وأحمد خطيط، بيروت، 2002، ص ص 254-179.و يراجع الدراسة القيمة : التليلي،العجيلي،المعهد الإسلامي وجامع باريس: الساسة الإسلامية لفرنسا اللائكية 1920-1939،ط1،تونس: الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم،2016، ص ص 50-51.

21- سعد الله، المرجع السابق، ص 244.

22- التليلي، العجيلي، المعهد الإسلامي...،المرجع السابق، ص 50.

23- Lieutenant El Hadj Abdallah, L'Islam dans l'armée Francaise.46p.

24- Ibid. p.4-6.

25- Ibid., pp.3-6.

26- Ibid. p.5.

27- Lieutenant El Hadj Abdallah, Les soldats Musulmans au service de la France, des Tirailleurs Algériens, Lausanne, Libraire nouvelle de Lausanne, 1917,88 p.

28- Ibid.p.5.

29- المشاة الجزائريين سمتهم فرنسا بالأتراك، وهم ينتمون لفيلق الجيش الفرنسي الإفريقي الذي كانت نسبة الجزائريين فيه تقدر بـ 90%،وظلت على هذه الحالة ما بين 1842-1964. أما الزواف أو زواوة، فهو اسم أطلقته قوات الاحتلال الفرنسي على سكان الجزائر والذين تم تجنيدهم منذ أواخر العهد العثماني للموازاة مع عناصر الجيش الإنكشاري وكان هذا في عهد الداي علي خوجة السادس (1817-1818)،و جندت هذه الفرق ما بين 1830-1962، وتعد من أكثر الأفواج المغرب العربي تقليدا للنياشين العسكرية. للمزيد راجع:

Clayton, Anthony, Histoire de l'armée française en Afrique 1830-1962, paris, Michel Albin, 1994.

30- Ibid. pp. 7-8.

31- Ibid. pp. 5-6.

32- Ibid., pp.32-40.

33- Ibid., pp.13-14.

34- صدر قانون التجنيد الإجباري في 3 فيراير 1912،فكان وراء هجرة الآلاف من الأسر الجزائرية نحو المغرب وتونس خوفا على أبنائهم. كما أقر مرسوم 3 أبريل 1912 تجنيد الشبان الجزائريين إجباريا لمدة ثلاث سنوات، وإبقائهم في سلك الاحتياط سبعة أعوام . فتقدم وفد جزائري بعريضة إلى الرئيس الفرنسي بوانكاريه بتاريخ 26 جوان 1912 ،يطالبون فيها لتعويض عن الخدمة العسكرية وتعديل بعض موادها ،ريمون بوانكاريه(Raymond Poincaré) سياسي فرنسي (1860-1934) تولى رئاسة الجمهورية الفرنسية الثالثة . (1913-1920) وفي عهده دخلت فرنسا الحرب العالمية الأولى. كما تولى رئاسة الوزارة في فرنسا ثلاث مرات:

- من 21 يناير 1912 إلى 21 يناير 1913
- من 15 يناير 1922 إلى 6 جوان 1924
- من 23 يوليو 1926 إلى 29 جويلية 1929

راجع: أبو القاسم،سعد الله،المرجع السابق،ج2،صص 183-184.

35- Lieutenant El Hadj Abdallah, L'Islam dans l'armée, pp.19-28.

36- Ibidem.

37- Ibid., pp.9-10.

38- أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، طبعة خاصة، الجزائر: دار المعرفة،2011 ، ج3،ص ص 107-108/ ج4، ص 377.

39- تم الرد عليه بواسطة كتابه ألف لهذا الغرض:

Jean-Yves, Bertrand, Le colonel Chérif Cadi, serviteur de l'Islam et de la république, éd, Maisonneuve et larose Sd.

40- جاء باللغة العربية بالصيغة التالية: القول الناصح في مجادلة الخائن الكاشح. في 59 صفحة. ووفقا للمصادر الفرنسية فإن المفتي عبد الرحمن القطرانجي مفتي الأصنام (الشلف حاليا) ابن أخ زعيم انتفاضة منطقة القبائل سنة 1871 المقراني، قد تميز باستعداده

الدائم للتضحية من أجل فرنسا والولاء لها الأمر الذي جعل السلطات الاستعمارية أن تجعل منه إمام بمسجد البستان بضاحية باريس في أبريل 1916،فاستغل منبره للدعاية بالنصر لفرنسا وحلفائها. كما تزعم حملة دعائية واستغل نفوذه لحث أبناء العائلات الجزائرية المتنفذة في الجزائر على الانخراط في الخدمة العسكرية في صفوف الجيش الفرنسي، وركز دعوته على أتباع الطريقة الرحمانية ببوسعادة والشلف، وقدمت له فرنسا الأموال والسفر مجانا على نفقة الإدارة الاستعمارية كافأته بأراضي بدائرة قسنطينة وهذا بأمر من حاكم الجزائر. ينظر: مسلم:» المساعدة الأدبية للعساكر الوطنية في فرنسا ،الأمة «، جريدة الأخبار(الجزائر)،عدد 57 ، 17 سبتمبر 1915.و الكتاب باللغة الفرنسية:

Mokrani Boumezrag el Ouennoughi et Katrandhi, Abdelrahman, L'islam dans l'armée Française, réplique à des mensonges, Alger, Sd, 59p.

41- يقع في شرق غابة فانسان بباريس في طريق فوجون- سور مارن، وبهذه البنايات توجد مقبرة لتيرايور المسلمين.

42- التليلي،العجيلي،المعهدالإسلاميوجامعباريسالسياسةالإسلاميةلفرنساللائكية 1920-1939،ط 1،تونس: الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، 2016،صص 51-52..

43- التليلي،العجيلي، المرجع السابق، ص 59.

44- Lieutenant indigène Boukabouya(Hadj Abdallah), Les soldats musulmans ...,op.cit.

45- Ibid., pp.10-16.

46- Ibid., p.21.

47- Ibid., pp.38-39.

48- التليلي، العجيلي، المعهد الإسلامي...،المرجع السابق،ص49.

49- حول هذا الموضوع، يمكن العودة إلى الكتب التالية للاستزادة:

- عبد الكريم، رافق، العرب والعثمانيون،ط1، دمشق، مطبعة ألف باء،1974.

- أحمد زكريا الشلق، العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة: 1516-1916،ط1،مصر العربية للنشر والتوزيع،2002.

- جورج، أنطونيوس ،يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية ،، (ترجمة : ناصر الدين الأسد ،إحسان عباس)، ط8، بيروت: دار العلم للملايين.1987.